الحوار الفكري العدد 9 جوان 2007 ص ص 185-197

في أصول بلاد البربر(*)
إشكالية الاسم الإثني واسم البلاد

دراسة اختارها وعرّبها :
د. عقون محمد العربي
قسم التاريخ والآثار
جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر

في معرض حديثه عن قدماء الشمال الأفريقي (شمال ليبيا كما يسميه هو) كتب هيرودوت "... على امتداد شواطئ البحر التي تنتهي إليها ليبيا شمالا بدءا من مصر إلى رأس سولوييس (Soloeis) يسكن شعب من العرق الليبي ينقسم إلى عدّة أقوام (Peuplades) ما عدا الأجزاء التي يشغلها الإغريق والفينيقيون (Hérodote,Histoire,II,32).

هذا النصّ ذو أهمّية تاريخية كبرى ، فهو شاهد على الوحدة الإثنية لقدماء الشمال الأفريقي أي الليبيين لأنّ هيرودوت يتحدّث عن عرق ليبي يتكوّن من عدّة أقوام أي قبائل وهذه الوحدة العرقية تقابلها تجزئة قبلية أي تجزئة سياسية.

* *

يكون قدماء الشمال الأفريقي قد انقسموا إلى عدّة قبائل أو بالأحرى انتظموا في عدد من الاتحادات القبلية (Fédérations) والعشائرية، وكان لكلّ منها اسمها وإقليمها وماضيها ومصيرها، وحسب المؤرّخ الهاليكارناسي فإنّ الأُوس (Auses) والناسمون (Nasamons) والقرامنت (Garamantes) والماكسي (Maxyes) والزوك (Zaueces) والقيزانت (Gyzantes) واللوتوفاج (Lotophages)...الخ ، كلّ هؤلاء يعودون إلى ذات العرق الليبي ، وتكون هذه التكتّلات قد نشأت بسبب حاجيات الحياة الاجتماعية والدفاع والهجوم وبسبب عوامل أخرى أملتها ضرورة الحياة في كنف مجموعة متضامنة.

(*) في مقابل العنوان الأصلي : Aux origines de la Berbérie للمؤرّخ الكبير غابريال كامبس، وفي الواقع لا نوافقه في استعمال اصطلاح إثني (من الكلمة الإغريقية Ethnos)، لأنّه يدلّ في الدراسات الحديثة على أقليات عرقية تعيش داخل أمّة كبيرة، وليست متجانسة معها. وهذا الوضع لا ينطبق على الأمّة الليبية قديما ولا على الأمّة الأمازيغية حديثا، ولكن حفاظا على النصّ كما هو في أصله أبقينا عليه.

إلى جانب الأهالي الليبيين يميّز هيرودوت المهاجرين الذين قدموا من خارج ليبيا وهم الإغريق في قورين (Cyrénaïque) والفينيقيون في المناطق الساحلية الأخرى، ونشير إلى أنّ الاسم الدالّ على العرق (l'Ethnique) الذي استعمله المؤرّخ الإغريقي لتحديد اسم قدماء الشمال الأفريقي (Lebo) والاسم الجغرافي للقارّة أو القطر (Contrée) يعودان إلى نفس الجذر ، فـ**ليبيا** (Libye) تدلّ على القارّة و**الليبيون** هم ساكنوها على امتداد سواحلها الشمالية ، وقبل هيرودوت كان هوميروس قد تحدّث عن:"... ليبيا هذه ، حيث الخراف تولَد بقرونها ، وحيث كلّ المجتمع من الأمير إلى راعي الغنم ، كلّ فرد فيه ، له نصيبه من الجبن واللحم والحليب، والنعاج تُحلَب يوميا لأنّها تلد ثلاث مرّات في السنة (Homère, Odyssée, IV, 85-90).

ليبيا هذه التي تغنّى بها هوميروس هي دون ريب أفريقيا "البيضاء" التي يكون البحّارة الفينيقيون قد شرعوا في ارتياد شواطئها منذ الألف الثانية ق.م. ، وبالنسبة للشاعر الإغريقي ومعاصريه فإنّ سكّان ليبيا هذه يتكوّنون من مربّي أغنام ، ومن هذه الحرفة موردهم الأساسي ، وعيشهم جميعا من الأمير إلى الراعي –مهما كان المركز الاجتماعي– من قطعانهم.

أصل الاسم الإثني "ليبي"

ظلّ مصطلح ليبيا والليبيين يرِد باستمرار في النصوص الإغريقية اللاتينية إلى نهاية العصور القديمة ففي الإنياذة (Enéide) يتحدّث فرجيليوس عن مدن ليبيا وعن دبّ ليبيا ، وللتذكير بالليبيين يشير شاعر الإمبراطور أوغسطس بأنّه يقصد بهم عرقا لا يقهَر في الحرب ، أمّا سالوست فالليبيون عنده هم من بين السكّان الأوائل لأفريقيا ، واستعمل بلينوس الكبير مصطلح الليبيين للدلالة على أهالي الشمال الأفريقي ووصف بالليبية (Libyque) بعض المنتجات الحيوانية والنباتية التي يعود أصلها إلى هذا البلاد ، وفي وقت متأخّر استعمل مؤرّخ يوستنيانوس الرسمي اسم ليبيا بخصوص الهجرة الفينيقية في المتوسّط الغربي ودون ريب كان يقصد أفريقيا الشمالية ، ومن المملّ تحرير قائمة بكلّ المؤلّفين الذين عرفوا اسم ليبيا والليبيين والصفة ليبي واستعملوها.

في الوثائق الأثرية البونية والبونية الجديدة (Inscriptions puniques et néopuniques) نعثر على اسم ليبيا والليبيين في توفات صالامبو (Tophet de Salambo) التي تقدّم لنا سلسلة من النصب حيث نقرأ اسم "LBT" و "LBY" في عدّة أماكن ، ومن الغريب أنّ حرف "B" في بعضها يحلّ محلّه الحرف "M" وهي الظاهرة التي تتكرّر مرارا في أداء الأصوات عامّة وفي اللغات السامية على وجه الخصوص.

سمحت لنا حفريات معبد الحفرة (قسنطينة) بجمع العديد من النصب ذات النقوش البونية وفي أحدها ذكْر لاسم "LBY" ، وقد استُعمل في النصّ كاسم علم شخصي

(Anthroponyme) وهو نصّ إهدائي باسم أريش بن لبي (Arish fils de Lby) ، وكثيرا ما نجد الاسم الإثني مستعملا كاسم علم شخصي أو بالأحرى اسم علم شخصي يصاغ انطلاقا من اسم إثني مثل اسم العربي و عربية "Larbi et Arbia" في الشمال الأفريقي ، وهما اسما علم شخصيان صيغا انطلاقا من الاسم الإثني : عرب.

تمكّن فيفري (J. G. Fevrier) من فكّ نصّ مزدوج ليبي — بوني عثر عليه في مكثر (تونس) وترجم عبارة "BSD LBYM" بـ : في البلاد الليبية، وهو ما ورد في كتابة بالبوني الجديد اكتشفت في ناحية طرابلس أمّا كليرمون غانو (Clermont Ganneau) فقد اقترح ترجمة التعبير " RB MHNT BSD LWBYM" بـ : "رئيس الجيوش في البلاد الليبية " والمقصود في النصّ هو لوكيوس أيليوس لاميا (Lucius Aelius Lamia) ، كما وُجد الاسم "ليبيون" Libyens "مكتوب بالحرف الإغريقي على عملة تعود إلى القرن الثاني ق.م. ولكن من العسير معرفة الدار التي سُكّت بها ، ومن المرجّح أن يكون السكّ في بلد أفريقي مفتوح على التأثيرات الهلينية وعلى الحضارة البونية أيضا.

إلى جانب الاصطلاح "ليبيون" الذي كُتب بالحرف الإغريقي في صيغة المجرور الجمع (Génitif pluriel) فإنّ العملة كثيرا ما تحمل أحرفا معزولة من الأبجدية الفينيقية ، ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ المملكة النوميدية خلال القرن الثاني ق.م. كانت متفتّحة على ثقافتين كبيرتين في ذلك العصر وهما الثقافة البونية والثقافة الإغريقية ، وقد تكون تلك العملة لإحدى الدولتين نوميديا أو موريتانيا. .

ذكر الاسم "ليبيون" في بعض الآيات التوراتية ، ومن الواضح أنّ اسم اللبياهيم "" الوارد في سفر التكوين (Gén. X, 13) يحدّد في الواقع ويقصد الليبيين ، كما ورد في "المقتطفات" (Chroniques, XII, 3 et XVI, 13) ذكْر لليبيين ويقصد بهم الليبيين الذين حاربوا في صفوف الجيش الفرعوني ضدّ الملك رُبعام (Robaam).

يبدو جليا أن مصر الفرعونية أنّ مصر الفرعونية قد عرفت الليبيين والشعب الليبي في وقت مبكّر وقد استعملت نصوص الألف الثانية الهيروغليفية مصطلح ليبو أو ريبو (Libou ou Rébou) لتحديد اسم الشعوب التي تمتدّ بلادها غربي النيل (Bates, The Eastern Libyans, pp. 46-48) فقد نزح منها إلى مصر جماعة المشوَش (Mashwash) التي تكوّنَ منها فيلق عسكري هامّ في خدمة الفرعون والسادة الإقطاعيين ، وهم ينتمون إلى الشعب الليبي (Libou) وقد لا نجد مانعا في اعتبار أنّ اسم هؤلاء المشوَش غزوا مصر على عهد منفتاح بن رمسيس الثاني (1230 -1227) واسم الماكسي الذين ذكرهم هيرودوت – وحدّد بلَدهم غربي بحيرة تريتون (Triton) – من جذر واحد ، ويبدو أنّ قبائل ليبية أخرى تكون قد

شاركت في غزو شعوب البحر لمصر ، وكان ذلك في عهد رمسيس اثالث الذي تمكّن من إيقاف هذا الغزو والانتصار عليه في الدلتا (1191-1190 ق.م.) .

مهما يكن فإنّ اسم العلم الإثني : ليبو أو ريبو ، يعود إلى العصور القديمة العليا في مصر ، ويمكن أن نعتبر –في ظلّ الوضع الوثائقي الحالي) النصوص الهيروغليفية المصرية لأقدم النصوص التي نجد فيها شواهد متعلّقة بالاسم الإثني لليبيين، ولعلّ النصوص الإغريقية والتوراتية تكون قد أخذته عن المصريين ، ففيما يتعلّق بالتوراة يبدو أنّ السياق الذي ورد فيه اسم الليبيين يخدم هذه الرضية ، فالليباهيم الوارد في سفر التكوين يعتبَرون أبناء لمصرايم (Mesraïm) وفي المقتطفات : "... حار الليبيون في صفوف الجيش الفرعوني." وفي الأوديسا ذُكر اسم ليبيا والليبيين في معرض الحديث عن مصر.

ينبغي أن نعود من جهة أخرى،إلى مقابلة اسم الليبيين بالاسم : إثيوبيون الذي نصادفه في الأوديسا مثلا، وفي هيرودوت وفي السفر الثاني من المقتطفات(Chroniques XVI في معرض الحديث عن سكّان أفريقيا، فهيرودوت يذكرالليبيين والإثيوبيين كعنصرين أهليين(Autochtones) (Hérodote, IV,197) وفي العهد القديم نقرأ ما يلي:"...ألم يشكّل الإثيوبيون والليبيون جيشا كبيرا بعربات وفرسان كثيرين(Chroniques,XVI, 8).

يدلّ تعاقب الاسمين : ليبيون، إثيوبيون في نصوص العهد القديم وفي أعمال المؤرّخين القدامى على أنّ المصدر المشترك الذي إستقى منه اليهود والإغريق هو المصدر المصري – دون ريب – فقد بدأ اليهود والإغريق يرتادون مصر منذ عصورها القديمة العليا، ويمكن أن نعود بالروايات العبرانية إلى عهد إبراهيم ، أمّا الإغريق فينبغي التذكير بأنّ الأيونيين بدأوا احتكاكهم بمصر منذ نهاية الاضطرابات التي أحدثها غزو شعوب البحر، دون إغفال علاقات مصر بالعالم ما قبل الهلّيني (Préhellénique) ولكن إذا كان الاسم الإثني ليبو قد استعمل أولا من قبل مصر الفرعونية فإنّ الترويج له على نطاق واسع يعود دون ريب إلى الأدب الكلاسيكي الإغريقي.

هل يتوجّب علينا في الأخير أن نخْلص إلى أنّ أصل الاسم الإثني **ليبو** ذو منشأ مصري ؟ وهل يمكن القول بأنّ وجود الاسم يعود إلى مصر الفرعونية ، قد تكون هذه الفرضية في ظلّ المادّة الخبرية المتوفّرة في الوقت الراهن غير جادّة ، ولعل من المفيد الإشارة إلى فرضية أخرى لا تقلّ جاذبية عن الأولى لأنّها تقوم على أساس تأويل لغوي (Exégèse philologique) وتبعا لذلك يمكن أن يعود الاسم الإثني "**ليبو**" إلى بحارة إيجيو-كريتيين الذين يكونون قد استعملوا مصطلح ليبوز "Libuses" لتسمية سكّان سواحل المتوسط الجنوبية ومصطلح ليقور "Liguses" لتسمية

سكّان ضفة المتوسّط الشمالية ويربط دوروي (L. Deroy) صاحب هذه الفرضية اسم ليبوز بالجذر ليبوس "Libus" الذي يعني العتمة والسواد في مقابل اسم الضفّة الشمالية ليغوس "Ligus" الذي يعني الوضوح ، وتبعا لهذه الفرضية يكون المصريون هم الذين أخذوا التسمية ليبو، ريبو من لغة البحارة الإيجيو-كريتيين ، غير أنّه ينبغي الإقرار بالطابع المخادع للاشتقاقات الفيلولوجية ، وخاصّة عندما يتعلّق الأمر بدراسة اسم غير مؤكّد في اللغة المتخذة مرجعا ، ولا بدّ هنا من الإشارة إلى بعض فقهاء اللغة أو بالأحرى مستعملي الفيلولوجيا الذين يدّعون القدرة على اقتراح أصول سامية لكلّ الطوبونيميا الشمال أفريقية ، وهم يجهلون هيكل الحروف الصامتة في اللغة الأصل، وهو ما يجعل مثل هذه الأعمال بمثابة باب مفتوح على اشتقاقات.تقوم على الأهواء.

نعود إلى فرضية دوروي المتعلّقة بأصل الاسم الإثني:ليبيون"Libyens" ونقول دون تردّد بأنها في غاية الهشاشة،لأنّ وجود الاسم في النصوص الفرعونية وجود حقيقي أمّا الأصل الإيجيو-كريتي المزعوم فهو نتاج استقراء مغر حتّى لا نقول أنّه استقراء نزوي، تفنّده العودة إلى الأنثروبولوجيا ففي ذلك العهد السحيق كانت شعوب الشمال الأفريقي تعيش في هذا الفضاء الواسع فكيف يمكن تمييزها في لون البشرة عن الكاطالان وباقي شعوب المتوسّط، ولذلك ينبغي التمسّك بحقيقة أنّ اسم الليبيين في النقوش والنصوص الفرعونية يحدّد في الأساس شعب أفريقيا البيضاء وتبقى إشكالية أصل هذا الاسم الإثني واشتقاقه قائمة، وفي ظلّ الأوضاع الوثائقية يبقى الأصل المصري هو الراجح ولكن ذلك لا يعني أن ننسب للمصريين ابتكاره أو أنّه مشتقّ من جذر مصري.

لا شيء في العهد القديم يبطل فرضية أخذ الاسم من مصر،أمّا مدن الشرق الفينيقية فلا وجود فيها لذكر الاسم الإثني "ليبيون" ولا في أيّ نصّ لفينيقيي الشرق ، وطبيعي أن نجد الاسم في نصوص بونية وبونية جديدة في أنصاب قرطاج،سيرتا، مكثر، ومنطقة طرابلس (Tripolitaine) وفي جميع الأحوال يعني هذا الاسم : الأهالي (Autochtones) ممّا جعل البعض يفترض أنّ الإغريق لهذا السبب يكونون قد اقتبسوه من القرطاجيين وروّجوا له،وفي بعض الحالات ينتهي هذا الفرض إلى أنّ الأهالي يكونون قد تبنّوه باعتباره يحمل دلالة إدارية ، ومنه نستخلص أنّ استعمال الاسم يكون قد مرّ عبر حلقات في سلسلة من المصريين إلى الإغريق فالفينيقيين أو القرطاجيين وأخيرا الأهالي.

يمكن أن يكون الفينيقيون ومثلهم عبرانيو العهد القديم قد أخذوا الاسم احتمالا عن الإغريق أو أخذوه مباشرة من مصادر مصرية ، ويبقى دور الترويج للاسم الإثني الذي يعزى إلى الإغريق من خلال الكتابات

التاريخية المعاصرة محلّ جدال فلا شيء يمنع من افتراض وساطة فينيقية بين الأوديسا ومصر الفرعونية بحيث أنّ ترتيب حلقات السلسلة حينئذ سيختلف وسيكون كالآتي : مصريون – فينيقيون – إغريق، ودون تحيّز يبدو لي أنّ هذه الفرضية جديرة بالاعتبار ، ويبقى أن نلاحظ في الواقع أنّ الأسماء الشخصية لبي و لبت (Anthroponymes LBY, LBT) التي يمكن أن نترجمها بـ: ليبي ، ليبيّة ، ترد مرارا في الكتابات البونية ، ومن هنا يتبيّن لنا أنّه من الصعب أن نقبل بفرضية أسماء مشتقّة من اصطلاح أجنبي أدخله الإغريق أو الفينيقيون ، ولكي يكون هذا الاسم الشخصي (Anthroponyme) مُتبنّى أو حتّى مستحسنا من الأهالي ينبغي أن يجد فيه الذين يطلقونه على أبنائهم أو الذين يحملونه ذاتهم ، وأنّه يجسّد حقيقة الروابط التي تجمعهم وتوحّدهم بشعبهم وبإثنيتهم.

يعبّر حمل اسم لبي أو لبت (LBY, LBT) عن الاعتزاز بالانتماء إلى الجماعة (Communauté) ويترجم من جهة أخرى شيئا من الكبرياء الإثني (Orgueil ethnique) إنّه التحمّس للجنس وتمجيده ، ولا نعتقد أن اسما إثنيا أجنبيا يمكن أن يعبّر عن هذه العواطف حتّى يُتبنّى ، وتبعا لذلك سيقع البحث عن اسم أصيل مفضّل يكون في مستوى أصالة الجنس أي أصالة الجماعة ، وهذه الظاهرة أصبحت جليّة وتبقى في الشمال الأفريقي أين انتهى القسم الأكبر من أهله تحت تأثير اللغة والدين إلى الإحساس بأنّهم عرب في الأصل والجنس ينحدرون من قبائل عربية مهاجرة ولذلك يتردّد الاسم الشخصي : العرْبي وعرْبية وكأنّه يؤكّد نبل جنسه ويمجّده.

يبدو أنّ الاسم الإثني : مازيس وماس (Mazices et Maces) في هذا العالم البربري يقدّم اسم مازيغ (Mazigh) كاسم إثني وشخصي واللقب مازيغ (Le Patronyme Mazigh) في تونس يثبت ذلك،وهذا ما جعلني أميل شخصيا إلى نسبة الاسم الإثني ليبي وليبيون إلى جذر أهلي والإقرار بأصله الأهلي لأنّه احتلّ مكانة هامّة ووقع تبنّيه بعمق.

استعمل المصريون – لتحديد اسم سكّان غربي النيل– اسما إثنيا احتفظ به السكّان لتقديم أنفسهم وتحديد هويتهم، وكأنّ هؤلاء السكّان يعترفون بأنّهم ل ب مْ (LBM) أي ليبيون وهو ما جعلني أعتقد أنّه بالإمكان مراجعة حلقات السلسلة التي أشرنا إليها آنفا لنضيف اسم ليبيين في بدايتها، ومهما كان تواتر حلقات السلسلة ينبغي أن يحتلّ اسم ليبيين في رأينا المقام الأول في التسلسل وعلى المتخصّصين في اللغة الليبية أن يحدّدوا الأصل الاشتقاقي لهذا الاسم الإثني ، والتعرّف على القيمة الدلالية لجذره الأصلي الذي يعود إليه اسم المكان ليبيا المذكور كثيرا في الآداب الكلاسيكية ، والحال أنّه لا يمكن الجزم – أمام سكوت الوثائق الليبية والبونية– بأنّ اسم المكان ليبيا صاغه الإغريق من الاسم الإثني : ليبيون أو أخذوه عن الفينيقيين أو

المصريين ومن الأحسن في هذا السياق أن نترك الملفّ مفتوحا.

من الأكيد أنّ حقل استعمال الاسم ليبيون وليبيا للدلالة على العنصر الإثني وعلى البلاد يختلف من عصر إلى آخر، وقد يستعمل المؤلّف الواحد أحيانا الاسم الإثني واسم المكان في دلالات عديدة فإذا كان اسم "ليبين" لدى هيرودوت يدلّ على كلّ القبائل التي تسكن السواحل الشمالية لأفريقيا من مصر إلى رأس سولويس أي من السيرت الكبير إلى موريتانيا فإنّ "الليبيين" في كتابات بوليب هم الأهالي (Autochtones) الخاضعين لإدارة قرطاج، ففي الجند المأجور قدّم ماطو (Mathos) كقائد ليبي في حين قدّم ناراوس (Naravas) على أنّه أمير نوميدي، ويبدو إذن أنّ بوليب يعتبر الليبيين فرعا من السكّان الأفريقيين : قبيلة أو فدرالية قبائل يقع إقليمها غربي قرطاج، فيكون التوسّع القرطاجي غربا حينئذ على حساب أراضي تمتلكها قبائل ليبية، ويخبرنا مؤرّخ سكيبيو الإيميلي بأنّ ماطو في خططه الحربية أرسل إلى النوميد والليبيين يطلب نجدات ويقول لهم بألاّ يتركوا فرصة التحرّر تضيع من أيديهم (Polybe, I, 77).

يميّز سالوست (منتصف القرن الأول ق.م.) السكّان الأفريقيين بوجود قاعدة مجتمعية ليبية وأخرى جيتولية "...كان سكّان أفريقيا الأولون من الجيتول والليبيين، وهم شعب خشن ومتوحّش، يتغذّى على لحوم الحيوانات والنباتات البرية مثل القطعان لا يحكمه عرف ولا قانون ولا حاكم، يعيش متفرّقا، على المغامرة، ولا يتوقّف إلاّ عندما يدركه ظلام الليل" (Salluste, Guerre de Jugurtha, XVI) ونستنتج من هذا النصّ وجود تعدّد إثني ولكن الثقافة واحدة ففي نظر سالوست يوجد عنصران (ليبي وجيتولي) ولكن تجمعهما ثقافة واحدة (نمط الحياة، الأخلاق والعادات) وهي ثقافة الشعوب البدائية أي أنّ من وراء نصّ سالوست لا يختلف هذا الشعب في نمط الحياة وفي المكان ولو اختلف حسبه في الأصل، ولذلك حاول البعض ربط هذه الثنائية بثنائية رحّل/مستقرّون (Nomades/ Sédentaires) الأولى قرب المحيط والثانية إلى الشرق منها ولكن هذا التأويل بعيد عن النتطق المشروع، ويبدو بالنسبة إلينا أن الاحتفاظ بالتمييز بين الجيتول والليبيين كاف لتسجيل الفهم الضيّق أيضا عند سالوست للاسم الإثني "ليبيون".

يعرف اسم البلاد "ليبيا" نفس الوضع ففي الأوديسا يبدو أنّه يحدّد اسم أفريقيا الشمالية من خليج السيرت إلى المحيط، أو كما قال هيرودوت من مصر إلى رأس سولويس ولكن هذا الأخير استعمل اسم المكان هذا في مفهوم أوسع للدلالة على القارّة كلّها في معرض حديثه عن الرحلة الكبيرة التي قام بها طاقم ملاحي فينيقي لحساب الفرعون نيخاو (Néchao) في نهاية القرن VII ق.م..

اختصرت النصوص الإغريقية اللاتينية في وقت لاحق اسم ليبيا ليوافق الشمال الأفريقي أمّا بوليب فيصعب وضع حدود لليبيا كما يقصدها هو، هل هي أفريقيا الشمالية كلّها حتّى المحيط أم هي بلاد من يسمّيهم الليبيين ويميّزهم عن النوميد؟ وبعبارة أخرى لا نعرف ما إذا كانت نوميديا حسبه تشكّل قسما من ليبيا ؟ ولكن في جميع الحالات تحمل المنطقة الخاضعة لقرطاج – خلال حرب الجند المأجور – عنده اسم ليبيا بما في ذلك مدن أوتيكا، تونيس... هيبو، ونقرأ في بوليب عبارة "... هذه أسباب وبداية حرب الجند المأجور المسمّاة أيضا الحرب الليبية، وصل ماطو إلى مقاصده وأرسل موفَدين إلى المدن الليبية يدعوها إلى التحرّر ويطلب منها المدد والإسهام في العمليات الحربية فاستجابت ليبيا كلّها تقريبا لندائه بالثورة على قرطاج وأرسلت إليه عن طيب خاطر إعانات مالية ومددا، وعند ذلك وزّع المهمّات على الفرق التي ذهب بعضها لحصار أوتيكا والبعض الآخر إلى حصار هيبو دياريتوس (Hippo diarrytus) لأنّ هذين المدينتين رفضتا الانضمام إلى الثورة (Polybe, I, 70, 7-9).

يقرّ أغلب المؤرّخين بأنّ تسمية ليبيا (Libye) ذات نزعة شمال أفريقيّة ونلمس ذلك في ديودور الصقلّي في معرض حديثه عن المستعمرات الفينيقية في المتوسّط الغربي، ويذكّر بقصّة مورينا (Myrina) وهي أميرة أمّة من النساء المحاربات (Amazones) في الطرف الغربي من ليبيا بجوار المحيط ، أمّا بروكوب (Procope) فاستعمل في حروبه الونداليه اسم ليبيا لتحديد كلّ الشمال الأفريقي ، ودون الإدّعاء بامتلاك الحقيقة كاملة حول المسألة فإنّنا نستطيع التأكيد على الطابع غير الثابت لاسم ليبيا وتمطّطه ، وكذا الاسم الإثني "ليبيون" ، وإذا كان الاسم -تباعا أو في الآن ذاته- قد حدّد على التوالي كلّ القارّة الأفريقية ثمّ الشمال الأفريقي وكذا الجزء الشرقي الذي خضع للرقابة السياسية والإدارية لقرطاج فإنّ ليبيا اليوم تغطّي أقاليم طرابلس وقورين والفزان والمناطق الصحراوية التابعة لها فهل يعني ذلك الرجوع إلى نقطة البدء ؟ وأنّ الاسم بعد أن بلغ أقصى مداه تضيق دلالة استعماله لتقتصر على القسم الذي يعمره السكّان الذين أشارت إليهم النصوص المصرية باسم الليبو ؟ فهل ينبغي أن نسند هذه المسألة إلى تقلّبات التاريخ ، وإلى جانب كلّ هذا يُضاف الغموض الذي نلاحظه في الوصف الكلاسيكي فالمؤرّخون لا يميّزون بين الليبيين والبونيين ، ويشير ديون كريسوستوم (Dion Chrysostome) بأنّ حانون حوّل القرطاجيين من صوريين إلى ليبيين (Discours, XXV) أمّا أريان (Arrien) فوصف المكتشف حانون بالليبي (Hannon le Libyen) (Indica XLIII, 2).

أصل الاسم الإثني "أفريقي"

عرف الاسم الإثني أفر (Afer) واسم البلاد أفريكا (Africa) نفس المسار تقريبا

وهو اسم أحدث نسبيا إذا أخذنا في الحسبان الشواهد الكتابية، التي ورد فيها الاسم ابتداءً من القرن الثالث ق.م. وعلى الخصوص لقب الأفريقي الذي حمله سكيبيو المنتصر على هانيبال للتذكير بانتصاراته على الأرض الأفريقية ، كما أنّ اسم البلاد "أفريكا" ذاته صاغه الرومان من الاسم الإثني أفر (Afer) الذي نجده مقرونا بأسماء الكتّاب الأفريقيين مثل بلاوت وترنس (Plaute, Terence) للتذكير بأصولهم الأفريقية التي يبدو أنّها عنوان للفخر كما استعملت الصفة أفريقي (Africanus) للتعريف بنباتات وفواكه من أصل أفريقي.

ذكر كاتون (Caton) في الموضوع الذي عالجه في الفلاحة التين الأفريقي " Ficus africanus" وينبغي أن نلاحظ بالقابل غياب الاسم الإثني أفر في الوثائق الإغريقية والبونية المتوفّرة حاليا ، ويبدو أنّ هذا الاسم الإثني الذي اشتُقّت منه صيغ مثل أفريكا ، أفريكانوس، أفريكوس (Africa, Africanus, Africus) قد استُعمِل لتعيين السكّان الذين يعيشون في أقاليم خاضعة للرقابة السياسية والإدارية لقرطاج ، وهو ذو استعمال متواتر في الآداب والأعمال التاريخية اللاتينية التي تعود إلى ما بعد تدمير قرطاج حيث تأسّست مقاطعة رومانية على أرض الإقليم القرطاجي سمّيت بمقاطعة أفريقيا الرومانية.

يلاحَظ بعض الالتباس في استعمال اسم أفر (Afer) ففي تيت ليف نجد الاسم في صيغة الجمع (les Afri) مطابقا للاسم : ليبيون (Libyens) لدى بوليب ، أي الأفريقيون الخاضعون لقرطاج ومثله أريان يصف حانون المكتشف بالليبي كما وصف الشاعر هوراس القائد هانيبال بالأفري (Hannibal d'Afer) (Horace, Odes, IV, 445) .

يبدو أنّ المؤرّخين يميّزون ما بين الأفري والماور (Maures) والنوميد ، ويبدو أنّ الاسم الإثني **"أفر"** في منشأه يدلّ على قبيلة أو فدرالية قبائل يطابق إقليمها عموما تونس الشمالية الشرقية ، و من الملاحظ في وقت متأخر أنّ سكّان نوميديا التي ضمّها قيصر يشار إليهم أحيانا بالاسم الإثني "أفري" كما هو الحال في كتابات شيشرون (Ad Quintum Fratrem) وكتابات بلينوس الأصغر وفي أحيان أخرى أطلقت تسمية أفري على كلّ سكّان أفريقيا وممّا يؤيّد هذه الأطروحة نجد العديد من النصوص اللاتينية التي مثل سالوست (Salluste, guerre de Jugurtha, XVIII, 3) وكورنيليوس نيبوس (Cornelius Nepos, Lysandre, III, 2) وبومبونيوس ميلا (Pomponius Mela, 1, 25) وبلينوس الكبير (Pline l'ancien, Hist. Nat. VII, 200).

أشار سطيفان اقزال إلى الحالة التي أصبح فيها الاسم **أفري** مستعملا للدلالة على سكّان كلّ القارّة الأفريقية (Gsell S.,H.A.A.N, T. VII, p. 7) لقد صيغ اسم البلاد أفري دون ريب من قبل الرومان وكان يعني في الأساس الأقاليم التي فتحها الجيش الروماني خلال الحرب البونية الثانية (149-

146ق.م) أمّا رواية سويداس كانت قرطاج اسم أفريقيا فلا تحظى بأيّة مصداقية وهذا رأي اقزال وستانسلاف (Stanislav) على الأقلّ وبالمقابل فإنّه كان هذا الإقليم الواقع حول قرطاج خلال الحرب البونية الثانية حسب رواية زوناراس (Zonaras) يسمّى أفريقيا وهي رواية جديرة بالاهتمام ويمكن أن نفهم منها تسمية الخصم الأكبر لهانيبال بالأفريقي(Africanus).

أفريقيا قبل كلّ شيء هي بلاد الأفري (Pays des Afri) ولكن مثلما لاحظنا آنفا طبّقت هذه التسمية الإثنية على كلّ الشمال الأفريقي من إقليم طرابلس إلى المحيط وحتّى على القارّة كلّها، ومن المثير للاهتمام في هذا الموضوع أنّ سالوست استعمل اسم أفريكا في الفصل XVI ويبدو أنّه يقصد به كلّ القارّة أيضا، أمّا في الفصل XVIII فيقصّر مدلوله على الشمال الأفريقي ، ومع نهاية التاريخ القديم خلال إنشاء مقاطعات زوجيتان وبيزاكينا (Zeugitane et Byzacène) بجوار نوميديا، والموريتانيتين وطرابلس (Tripolitaine) سيقتصر اسم أفريكا على منطقة لا تغطّي سوى شمال تونس وقسم من شمال شرقي الجزائر وسيبقى اسم افريقية (Friguia) مستمرّا في تونس الحالية ويقصد به منطقة المجرى الأوسط لمجردة على العموم، وكنّا شاهدنا في السنوات الأخيرة بدوا وأنصاف بدو في فصل الحصاد يصعدون باتّجاه شمالي تونس لعرض خدماتهم، وهي القيام بالحصاد ، على كبار الملاّك وعندما ينهون عملهم يتحوّلون إلى ملتقطي سنابل ممّا يبقى في الحقول لجمع الاحتياط الذي يكفيهم إلى الموسم المقبل وكأنّهم يعيدون تركيب مشاهد توراتية كالتي وردت في سفر روث (Livre de Ruth) وللردّ على سؤال إلى أين أنتم ذاهبون ؟ يجيب هؤلاء البدو وأنصاف البدو: نسير للوصول إلى افريقية (Friguia) بلد القمح.

نسجّل في نهاية هذا الفحص السريع بأنّ حدود الاسم الإثني "**أفر**" واسم البلاد **أفريكا** الذي اشتُقّ منه، كثير التحوّل ، وينبغي القول أنّنا لا نزال إلى أيامنا هذه نعمل على إزالة بعض الغموض في استعمال اسم أفريقيا خاصّة وأنّ مدلوله في لغة بعض الصحفيين وبعض الساسة يقتصر على أفريقيا السمراء – أو أفريقيا جنوب الصحراء– أمّا فيما يتعلّق بالشمال الأفريقي فإنّ أهله نادرا ما يصفون أنفسهم بأنّهم شمال أفريقيون ، والذين يستعملون منهم التسمية الأخيرة أخذوها عن الأوربيين، ومن المثير، من جهة أخرى، أن نسجّل أيضا بأنّ زنوج أفريقيا لا يقرّون دائما بأفريقيّة أهل المغرب الكبير (l'Africanité des Maghrébins) إلاّ أنّ الشكل الحفري لكلمة فريقية (Friguia) دليل على استمرار التسمية القديمة ولكن في نطاق ضيّق ، وفي الأخير ينبغي تذكير أولاء وأولئك بأن الاسم الإثني (أفر Afer) الذي هو أُصل اسم أفريقيا هو في

الأساس اسم لقبائل كانت تعيش في مناطق من تونس الحالية.

لا يكفّ بعض فقهاء اللغة والمؤرّخين – مع هذا كلّه– عن الجري وراء فرضيات مغالية في الخيال، في تحليل أصل اسم أفريقيا بحيث قاربه هؤلاء بالكلمة اللاتينية (Aprica, Apricus) التي تفيد معنى المناخ الحارّ نسبيا، أمّا نصوص الوصف التاريخي في القرون الوسطى العربية فقد لجأت إلى بطل أسطوري هو أفريقش (Africus) الذي اشتقّ منه اسم هذه المنطقة من المتوسّط الغربي ! هذه الأسطورة مذكورة في كتابات البكري من القرن XI وفي كتابات ابن خلدون (ت. 1406) ولم يتردّد البعض في ربط اسم أفريقيا بالاسم الإثني : فريجيون Phrygiens مع أنّ هذه الاشتقاقات كلّها تقوم على نزعة خيالية صريحة وساذجة ومن غير المجدي السير في سياقها.

ينبغي في الواقع البحث عن أصل اسم أفريكا في الاسم الإثني أفار (Afer) مع أنّ تفسير الاسم انطلاقا من مدلوله الإثني لا يخلو هو الآخر من شيء من النزعة الخيالية ، فقد لجأ البعض في هذا السياق إلى أبطال وملوك فاتحين (أفريقش) أمّا البعض الآخر فقد اعتبر أفر الجدّ الأعلى للأفريين ، واعتبر البعض الآخر أنّ هذا الجدّ الأعلى للآفري قد يكون اسمه أفراس ، إيفرا، أفراوس أفروس Apheras, Iphera, Aphraos, Aphros ...الخ ، وفي زعمهم أنّه ابن لكرونوس من فيليرا (Philyra) ، أو ابن لإبراهيم من كيتورا (Cetura) ، هذه الرواية الأخيرة رواها المؤرّخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس في كتابه العصور القديمة اليهودية (Antiquités juives) وفي رواية أخرى أوردها سولين (Solin) وهو جغرافي من القرن الثالث الميلادي يكون أفر ابنا لهرقل الليبي(Hercule libyen).

لعلّ المحاولة الجديرة بالاهتمام هي المحاولة التي تستند على لغة البلاد لربط الاسم بالأسماء التي يجمعها به جذر واحد وستكون مساهمة دراسة الأعلام قيّمة من ذلك ما جاء في إحدى النقوش اللاتينية ذكر لإله ليبي يسمّى إفرو (Ifru, CIL, VIII, 5673) وقد نقشت صورة هذا الإله مع نصّ لاتيني على صخرة في موقع شرقي قسنطينة، كما ذكر ابن خلدون قبيلة باسم بني إفرن ، وأشار كوريبوس إلى مكان اسمه إيفيرا (Ifera) لم نتمكّن من تحديد موقعه، كما ذكر مجموعة سكّانية اسمها إيفوراس (Ifuraces) كانت متمركزة خلال القرن السادس في ناحية طرابلس.

في جهة القبائل الكبرى نسجّل وجود مكان يسمّى إفري ندلال (Ifri N'Dellal) ، وقرية اسمها إيفيرا (Ifira) يذكّر اسمها صوتيا على الأقل باسم إفيرا الوارد في كوريبوس ، وهناك الكلمة البربرية إفري (Ifri) التي تعني المغارة أو الكهف، ولعلّ بني إفرن الذين ذكرهم ابن خلدون كانوا في الأساس يسكنون المغارات (Troglodytes) وللتذكير

فإنّ ظاهرة سكنى الكهوف كثيرة في أفريقيا الشمالية وهي مستمرّة في جهات شنيني وتطاوين في الجنوب التونسي ، ويجعلنا السير في هذا السياق نقترح ربط الاسم الإثني أفر بالجذر الليبي الذي اشتُقّ منه إفري أي المغارة وإفرو الإله الليبي ، واسم بني إفرن وكذلك اسم إيفيرا وهي قرية في بلاد القبائل ، فهل الأفري (les Afri) هم في الأساس سكّان الكهوف ؟ ومنه يمكن استخلاص أنّ الاسم الإثني **أفر** يعود إلى اللغة الليبية أمّ اللهجات البربرية الحالية.

يقترح بعض اللغويين اشتقاقا ساميا لربط أفر بالجذر "BR'" الذي يعني عبر، وفكّر آخرون من ذوي النزعة السامية (Sémitistes) في تفسير الاسم بإعادته إلى الجذر "FR'" الذي يعني الغبار أو الرماد مع أنّنا لا نعرف كيف يكتَب أفر في السامية ، والحالة هذه لم نتمكّن من تحديد المكوّنات الحرفية (Consonantiques) للجذر، وفي غياب المعرفة الجيّدة بالجذر فإنّ أيّة فرضية لا يمكن أن تنال المصداقية بصفة جدّية غير أنّ أحد أنصار التفسير السامي وهو ستانيسلاف سيجار تناول ثانية مسألة أصل الاسم أفريكا وطرح فرضية الاشتقاق السامي مشيرا إلى إمكانية ربط أفر بعفر ('FR) وليثبت ما ذهب إليه اعتمد على ظاهرة سقوط الصوامت الحلقية في اللغة البونية الجديدة وفي إطار هذه الفرضية فإنّ الأفري حسب ستانيسلاف ينبغي أن تطابق عبارة فينيقيي أفريقيا الشمالية الذين عبروا البحر ، وبسبب تطوّر دلالي داخلي فإنّ اللفظة وصلت إلى أن تكون اسما في أفريقيا لسكّان الريف في مقابل الحضر، أي أنّها أصبحت اسما لنظام اجتماعي أو لنمط حياة أكثر من كونه اسما لعرق.

لا يتوفّر ما قام به ستانيسلاف رغم الجهد المبذول على قاعدة موضوعية وهو ما يعاب عليه لأنّ اسم أفر لم نجد له أثرا في النقوش البونية ولا في النقوش الفينيقية وهو ما لا يسمح بصوغ فرضية مؤدّاها أنّ مهاجرين فينيقيين يكونون قد حملوا اسما صيغ من الجذر عبر 'BR أو الجذر عفر 'FR بمعنى عبر ! .

يستحسن في ظلّ الوضع الوثائقي الحالي أن نأخذ بحكمة اسطيفان اقزال الذي بعد أن تفحّص الموضوع بدقّة أعلن أنّ الأصل الاشتقاقي للكلمة **أفري** يبقى غير معروف وقد رأينا أعلاه كيف أنّ الوضع شبيه تقريبا بالنسبة للاسم الإثني ليبي Libyen وإذا لزم الأمر علينا أن نختار تبنّي فرضية الأصل الأهلي أي الأصل الليبي للاسمين الإثنيين (les deux patronymes ethniques).

أصل الاسم الإثني "بربر"

هناك اسم إثنيّ آخر يستعمله المؤرّخون مرارا ويعنون به أهالي الشمال الأفريقي الذين بقوا طويلا بمعزل عن التأثير الثقافي على مستوى اللغة التي يستعملون على الأقلّ ، ونقصد بذلك الاسم الإثني : **بربر** (Berbères) الذي كان هو الآخر محلّ فرضيات تنزع إلى الخيال ، فقد ربطه بعض

المؤرّخين العرب بجدّ مشترك يسمّونه **بـــرّ** ، وبعضهم الآخر كالمسعودي والطبري اللذين أخذ عنهما ابن خلدون يعيدون الاســم إلى أفريقش الفاتح الأسطوري الذي أطلــق في زعم هؤلاء اسم البربر على أهـــالي أفريقيـــا الشمالية عندما سمع الرطانة التي تتكلّم بهـــا قبائلهم،وفي هذا السياق ابتدعوا حكاية الجذر العربي بربرة (BRBR) الذي يعني اللجلجة في الكلام وإصدار أصوات غير مفهومة.

لقد أجريت مقاربة بربر ببعض الأسماء الإثنية وأسماء أماكن في وادي النيل وحتّى في الهند، والحال أنّ هذا الشكل من المقاربات لا يعدو أن يكون هذيانا ومحض اختلاق لا قيمة له. ومن الفرضيات المتعدّدة المتعلّقة بالأصــل الاشتقاقي للاسم الإثني بربر توجد فرضيات مطعّمة بفرضيات أخرى عن أصل الـــشعب الأفريقي ذاته فبالنسبة لكـــارل ريتـــر (Carl Ritter) قد يكون أصل البربر من الهند، أمّـــا النصوص التاريخية العربية في القرون الوسطى فتنسبهم إلى أصل يمني والفرضيتان معاً غـــير مشروعيتين وإذا كانت نظرية كارل ريتر قد هجرت تماما فإنّنا لم نوردها هنا إلاّ لإظهـــار الطابع الخدّاع لمثل هذه النظريات وكذا خطر الفرضيات المبنية على قاعدة هـــي الأخـــرى تقوم على فرضية تترع إلى الخيال.

لا تزال أطروحة المؤرّخين والجغـــرافيين العرب تحتفظ بمريدين في بعـــض الأوســاط المعرّبة، ولا نزال إلى يومنا هذا نرى أعمالا أو مقالات صحفية أو حصصا إذاعية لا تتردّد في إحياء تلكَ الأطروحة وتسبغ عليها [illegible] المشروعية والمصداقية التي أسّس لها كتّـــاب العصر الذهبي للحضارة العربية الإســـلامية، ولكن ينبغي الإقرار ببراءة الذين مـــن بـــين المؤرّخين الناطقين بالعربية يعـــالجون هـــذه المسألة بروح علمية مواصلين استعمال اللغات الحيّة في أحيان كثيرة غير أنّ أعمال هـــؤلاء تبقى في الغالب غير معروفـــة في مجـــتمعهم الخاصّ.

نعود إلى الاسم الإثني **بربـــر** ، لنجـــد أنفسنا على أرضية معروفة نسبيا، ونـــشير في البداية إلى أنّ العرب هم الذين وسّعوا نطاق تسمية **بربر** لتشمل كلّ أهالي أفريقيا الشمالية وخاصّة أولئك الذين بقوا خـــارج نطـــاق الحضارة الرومانية، ويمكن اعتبار سنة 647 م بداية لظهور اسم **بربر** كاسم إثني ، أمّا أصله الاشتقاقي فهو ببساطة من الكلمة اللاتينيـــة (Barbarus) المتواترة في النصوص التاريخيـــة اللاتينية لتحديد اسم الأهالي الذين عبّر عنهم اقزال بعبارة المستعصين على الحضارة اللاتينية (Gsell S.,H.A.A.N., I, p. 337) وفي الأعمال التاريخية العربية يبدو أنّ الاسم الإثني **بربر** لا يشمل الأفريقيين المترومنين، وهنـــا نلاحـــظ أيضا بأنّ الاصطلاح العربي غير واضح بدقّـــة فالأفريقيون المترومنون مـــع أنّهـــم كـــانوا يشكّلون الأغلبية في المدن وحتّـــى القـــرى الأفريقية خلال الفتح العربي امتزج بهم الروم أي البيزنطيون وقد استعملت تلك النصوص العربية أحيانا مصطلح **أفاريق** في تـــسميتهم والحال أنّ اصطلاح الأعمال التاريخية العربية غامض ولم تفلت من ذلك الغموض حتّـــى الدراسات المعاصرة.